قصة قصيرة

لا

عبد المجيد زراقط

كان مستلقيا على الصوفا ينظر من النافذة. وكانت الشمس البرتقالية تنزلق. « برتقالة صفراء حمراء . . . حمل في زوّادته ، عندما ذهب الى المرعى برتقالة . لم يأكل منها شيئا. تمزقت وتناثرت . . . لملمتها امه ونثرتها على رؤوس الناس معونة . ثم لملمتها وضمّتها الى صدرها مقبلة . مرّغت فيها وجهها ثم دفنته تنشج . . . وهذه برتقالة صفراء حمراء لا تزال تطل وتنزلق . . » مدّ يده من بين قضبان النافذة. بقت ممدودة : « لو قطفتك يا . . . »

مدّ يده على طولها . أطبق اصابع يديه وشدّ قبضته . بقي يرنو الى « البرتقالة » التي لا تزال تنزلق ويشدّ كفّه المطبقة .

كانت امرأته تتكلم بصوت عال :

ـ « لا يا جارة . انه لا يزال كما ترينه لا يمل من عد قضبان النافذة . والحليب؟ لا اعلم . . . ربما بعد ساعة » .

اطبقت شفتيها وانصرفت تعمل مكنستها الناعمة في جسدالبقرتين الضخمتين اللتين كانتا تجترّان بهدوء. ومن حين لاخر ، كانت ترمق الأثداء المنتفخة وتبسم مبسملة ، وتلاعب كفاً ازرق صغيراً يتوسط خرزات زرقاً انتظمت عقداً يتدلى على جبهة البقرة الصبحاء الواسعة « قلنا ارتحنا . رزقة نتعهدها بالعناية ونعيش. بقي زمنا يدندن جذلا ويعني بهما ، يرعاهما . ربّ لم هذا!؟ ساعدنا يا رب » .

ثم ارتفع صوتها :

ـ « ألا تريد . . .؟ ألا تريد ان تحلب البقرتين ؟ النسوة ما زلن ينتظرن الحليب » . بقيت امرأته تعيد : « ألا تريد . . .؟ الحليب . . . » .

لم يلتفت . عقد رجلا على رجل وسوّى المخدّة العالية تحت رأسه . مدّ يده على طولها وبقيت الكف مفتوحة . وكانت الشمس قد غابت .

حدّق في الأفق الأحمر «دم ! الأفق ايضاً مدمّى. كان الدم بقعا (نقعا) تطوق فيها ايد وأرجل . . . » .

بقي محدّقاً في الأفق . تغضن جبينه وغامت عيناه . « الأفق مجرى دم . يتدفق، يسوق. . . » . يكاد يصل الدم الى عينيه . وضع كفه امام عينيه . بقي يقلب كفه . . . « كفه هو اصغر ، اجمل . . . بعناية رفعته من النقعة مدلى الأصابع » . بدأت تتدلى في كفه زوائد عريضة. صارت تنبت فيه اصابع جديدة ، طويلة ودقيقة ، تنتهي بأظافر معقوفة حمراء، محشوة ترابا : « أيها التراب . . . لا بد من ازالتك . لن تعيق اظافري . . . » . كانت الأصابع تتكاثر وتطول . صارت تتحرك وتمتد . صارت وراء القضبان . كانت امرأته ترقبه ، رأته يطعن الفضاء بأصابعه المشرعة . اتسعت عيناها وتمتمت :

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله . . . اسم الله العظيم . . . » . ثم صرخت :

ـ « النسوة ينتظرن . الطناجر تنتظر. الأثداء تكاد تنفجر . ألا تريد: ولكن الأولاد يريدون والبيت . . . !» . شدّ صراخها يده ، حرك يديه كمن يحلب وجلس : « الدم ، الدم . . . انت بلهاء. ما زلت اضحوكة . هو الدم بدء الحياة . الحليب ! كلكم بلهاء . . . » .

بسملت امرأته . رددت ما تعرفه من آيات قرآنية ، ثم صمتت وراحت تمد جسد البقرة الصبحاء الناعم المبقع : « كان لا ينفك يحكي عنها ، في كل مجلس يعيد ويعيد . حتى الناس كانوا يبسمون عندما كان يبدأ الكلام . صاروا يعرفون عباراته : ـ تحلب طناجر . عاقلة تأكل الدجاجة من معلفها . هذا نوع من البقر ! انه التقدم والعلم » . . . المدنية . كثيرون كانوا يتضايقون من كلامه . ولم يكن يأبه بذلك . ـ وعندما جلبوها ورآها، دار حولها كثيراً وأصرّ على ان يمشيها وينظف شعرها بيديه . كان يأتي قبل موعد الحليب . ثم جلب الثانية واقتنع : ـ هاتان تكفيان العائلة مع شيء من الزراعة . لا ، لن اعود للسفر بعد اليوم . الحليب سوقه رائج ـ كان يجلس قربها ، يدللها ويغني لهما : ـ صبحة ، حلوة يا صبحة .

وانت يا ستي رابحة ـ

« كان يغني لها وينظر اليّ بعشق » .

رنت اليه بحنوّ . كان ساهماً ينظر الى البعيد، ويداه امامه مفردتا الأصابع . كان يهزهما من حين لآخر ، الواحدة تلو الأخرى ويتمتم :

ـ « انت امسكت من الأسفل . . . وانت من الأعلى . تأبى عليكما . . . حضنتماه الى الصدر . . . تدلى الى الأرض الحمراء. ارتمى في الصدر . فأصابعه تعرف شعراتي السوداء القاسية . كم شدها ! كم لاعبها . . . ! كم تمرّغ رأسه فيك ، انه يعود اليك ، ايها الصدر فاهنأ . اللحم غال . . . الدم غال لملمتما كل شيء يا يدي . شربت الأرض . . . الدم يجعل عين الأرض حمراء . . . آه لو تحمر عين الأرض فتنبت سيقانا واذرعا متصلبة . انت جلبت وريقات الكتاب المدماة . بقي رأس الأمير على الجلدة ، فوقه كان : التاريخ . بالكاد بان ، حجبه الدم . فوق شارب الأمير التصقت قطعة لحم صغيرة . بدت كطلقة تتهيأ . غطت طرفه

المعقوف . تغطى شارب الأمير . شرب شارب الأمير . اكان الدم مالحا ام حلوا ؟ أكان حادا ايها الشارب الثخين الأسود ام انك لم تذقه ؟ عجزت عن الشرب ام انك خفت ؟ مع اللحم والدم ، في التراب دفنتك . قد تعود . . . اني المحك . . . اما قلت لك ان الدم مخصب واللحم مخصب ايضا وتربتنا حمراء . . . لا تخف كثيرا ايها الأمير . لن يسرقوك . حفرنا لك عميقا وحضنك الصبي . قالت امه : ـ ادفنوا الكتاب معه . يكمل الدراسة تحت . عنده امتحان . قبل ان يسرح بالبقرات تناول الكتاب وقال : غدا عندنا امتحان . انا لن اسقط . لا ، لا نريدك ان تسقط يا بني . اقرأ تحت وسأنزل لك شموعا كثيرة . . . » .

انارت امرأته المصباح . غطى عينيه بكفيه . التحمت الأصابع السمراء فوق العينين . ترتجف امرأته على العتبة واضعة كفيها على فمها مفردة سبابتها فوق انفها : « والله انا لا افهم . عندما مرضت الصبحا كاد يجن . انقطع لها . لم يترك وصفة الا وجربها ، سُرَّ بهم عندما اتوا يحملهم الجيب الأسود محاطين بالجنود الشقر المسلحين . دخلوا يبسمون ناعمين . وتوزع الجنود في زوايا الدار متأهبين . قالوا : ـ نحن حاضرون في أي وقت . ثم جلبوا طبيبا وممرضا . اجروا لها عملية . . . وعندما شفيت الصبحا ، ازداد سروره ورضاه . ولكنه تغيّر منذ عاد . . . ذلك الانفجار هو السبب في حالته قالوا : اسرائيل تقصف الرعاة فخرج . . . » .

غام وجهها . تجمّعت على نفسها . نفرت شفتها العليا . أنزلت كم قميصها وزرّرته . « كان صبيا كالتفاحة . كالوردة . ابيض احمر . . . ذكي . . . الأول دائما حتى في مدرسة المدينة . . في ذلك اليوم ، كان يمضي العطلة في القرية ، وذهب عند العصر يرعى البقرات . بكتة القرية كلها ، الا هو بقي صامتا كالجبل كما هو الآن . قال وقت عاد الى البيت :

« ـ للصبحا أطباء وعملية . . لحسين قذائف وقذائف . الصبحا تحلب لهم . لا ، أنا لن أحلب لهم . لا . . . » .

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الآداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات

- الطاعون ـ لألبير كامو
- الثلج يشتعل ـ لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم ـ لروجيه غارودي